علم الاجتماع العربي والمناهج الغربية

الدكتور عبد العالي دبلة
جامعة محمد خيضر بسكرة
قسم علم الاجتماع

تسعى هذه المداخلة إلى مناقشة إشكالية علم الاجتماع في الوطن العربي منذ دخوله إلى الجامعات العربية بداية من منتصف القرن الماضي، ولقد كان من المفروض أن يكون علم الاجتماع علما عربيا نتيجة للسبق العلمي لابن خلدون الذي سبق الأوربيين منذ القرن الربع عشر حينما أطلق عليه علم العمران، إلا أنه في نهاية المطاف أصبحنا نستورد النظريات الغربية بأطرها المعرفية ومناهجها ومفاهيمها مسقطينها على الواقع العربي رغم الاختلاف بين العالمين (الغربي والعربي) اجتماعيا وثقافيا.

انطلاقا من هذه المقولة سنحاول التعرض في هذه المداخلة إلى إمكانية قيام علم اجتماع عربي انطلاقا من خصوصياتنا الثقافية والتاريخية ومحاولة مناقشة الدعوة إلى قيام علم اجتماع عربي وفق المناهج والمفاهيم الغربية رغم أن هذه النظريات بأطرها المنهجية والمعرفية نشأت في بيئة غير بيئتنا، رغم أن البعض يدعوا إلى تبيئة هذه المفاهيم و المناهج وفق الواقع العربي بكل تعقيداته وقضياه الاقتصادية والاجتماعية، من هنا يجدر بنا طرح التساؤل التالي محاولين الإجابة عليه من خلال هذه المداخلة:

هل يمكن إقامة علم اجتماع عربي خال من الأطر المعرفية والمنهجية الغربية وذلك بالرجوع إلى تراثنا العربي الإسلامي

وانطلاقا من واقعنا السوسيوثقافي؟ وهل توجد فعلنا مدرسة تسمى علم اجتماع عربي أو نظرية عربية في علم الاجتماع؟

1-إن الإجابة عن هذا السؤال المهم تجعلنا نتعرض إلى نشأة علم الاجتماع الغربي حتى يمكننا الخروج بموقف واضح يجيب عن التساؤل الذي طرحناه في البداية.

فلقد ظهر علم الاجتماع الغربي في خضم تلك التغيرات الجذرية التي كان يشهدها المجتمع الأوروبي في القرن التاسع عشر، تلك التغيرات الناتجة أصلا عن مسيرة طويلة بدأت منذ القرن الثاني عشر ومع بروز وعي جديد يبشر لانطلاقة علمية جديدة ، ما لبثت أن تمخض عنها عصر الحداثة الأوروبي منذ القرن الرابع عشر، وما إن حل القرن الثامن عشر حتى أصبح ممكنا أن تؤدي هذه التغيرات الفكرية والثقافية والعلمية نتائجها ، فحدثت الثورة الفرنسية كتجسيد لفلسفة الأنوار الأوروبية التي خلصت العقل من الظلمات التي كان يسبح فيها لقرون عديدة ، وتفجرت الثورة الصناعية كتجسيد للزخم العلمي الذي بدأ يتجمع وكان يجب أن يجسد في الميدان.

إذن أدت الثورة الفرنسية والثورة الصناعية إلى حدوث تغيرات عميقة مست كل جوانب الحياة في ذلك الوقت وكان لزاما إيجاد حلول مناسبة لظواهر اجتماعية لم يألفها المجتمع الأوروبي من قبل وكان لزاما أيضا إيجاد مجال معرفي تعالج فيه هذه الظواهر ،وهكذا انبثق علم الاجتماع وسط هذه التغيرات والمشكلات التي أصبح يعيشها المجتمع الجديد.

يمكن القول إذن أن علم الاجتماع الغربي هو ابن النظام الرأسمالي وقد جاء معبرا عن ظهور هذا الاتجاه منذ البداية ، بمعنى آخر أن علم الاجتماع الغربي انطلق من إشكالية واضحة أدت إليها ظروف موضوعية خاصة بالمجتمع الأوروبي وليس غيره وجاء معبرا ومترجما لمشاكل هذا المجتمع وتناقضاته.

2-أما إذا انتقلنا إلى المجتمع العربي فهل يمكن أن نتكلم عن علم اجتماع عربي أو نظرية عربية في علم الاجتماع كما يدعو بعض الباحثين العرب؟

الحقيقة أن المجتمعات العربية منذ الحرب العالمية الثانية بدأت وكأنها مقبلة على مرحلة جديدة في تاريخها وهي مرحلة ما بعد الاستعمار أي مرحلة التحرر من الاستعمار الغربي بأشكاله المختلفة (حماية، استطان ،انتداب)،وما صاحب هذه المرحلة من ظهور مشكلات عويصة ناتجة عن التخلف والضرر الذي أحدثه الاستعمار لهذه المجتمعات حيث لم يدمر أبنيتها الاقتصادية والثقافية بل شوهها تشويها فضيعا يصعب تصور حلول لها على المدى القريب.

وكان وضعا كهذا يمكن أن ينجم عنه بروز ضرورة ملحة لإيجاد إشكالية واضحة لعلم اجتماع عربي يكون انطلاقة لتحقيق غايات محددة وهي المساعدة في إيجاد حلول عملية لمشاكل المجتمع العربي إذا انطلقنا من فرضية وأن المجتمعات العربية يجمعها تاريخ مشترك وثقافة مشتركة وآمال موحدة، ولكن إلى حد الآن لم نشهد هذه الانطلاقة لعلم اجتماع عربي رغم الندوات والمؤتمرات العديدة التي عقدت هنا وهناك منذ السبعينات، فما هي أسباب ذلك؟

يمكن القول أن الدعوة إلى إقامة علم اجتماع عربي رغم مشروعيتها لم تكن نتيجة لتراكمات معرفية بقدر ما كانت رد فعل لهيمنة وتأثير علم الاجتماع الغربي الذي في تلك الأثناء دخل في أزمة عميقة عكست الأزمة البنيوية التي دخل فيها المجتمع ، وعوض أن نجد إشكالية خاصة بنا ونظرية اجتماعية نابعة من واقعنا العربي ،ذهب علماء الاجتماع العرب إلى النهل من الثقافتين الفرنسية والإنجليزية نتيجة للتبعية الفكرية التي استمرت الى مرحلة ما بعد الاستعمار ونشأ الاهتمام بعلم الاجتماع في الوطن العربي

من خلال هاتين المدرستين (الإنجليزية والفرنسية) وتم استبعاد منذ البداية المدرسة الألمانية (ماكس فيبر على سبيل المثال) وفي المقابل تم الاهتمام بسان سيمون وأوجست كونت ودوركايم[1].

ومما لاشك فيه أن نقل أفكار نابعة من إشكالية مختلفة عن الواقع العربي سيكون تأثيره سلبيا على هذا الواقع ، لأن السؤال الذي يطرح هنا هل تستطيع النظرية الغربية أن تجيب وأن تفسر كل ما يطفو على سطح الواقع من ظواهر وهل توفر لنا النظرية الغربية الحلول المناسبة لمشاكلنا ؟

في الحقيقة أن الجواب على هذه التساؤلات لم يكن موحدا من طرف الباحثين العرب نتيجة للأطر الايديولوجية التي تتحكم في هذا الباحث أو ذاك، ونجد في هذا الإطار أن الباحثين العرب اتخذوا مواقف تكاد تكون متناقضة وخاصة بين الذين يدعون للرجوع إلى التراث وإقامة علم اجتماع عربي نابع من خصوصياتنا التاريخية و الثقافية، ومن يدعون إلى تبني النموذج الغربي ماركسي كان أو وظيفي، وقليل هم الذين يتبنون الموقف التوفيقي.

وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الدعوة إلى تأسيس علم اجتماع عربي لم تكن سليمة في بدايتها رغم مشروعية الطلب، هذا ما أدى ببعض علماء الاجتماع العرب إلى العدول عن المطالبة بتأسيس علم اجتماع عربي له خصوصياته ومرجعياته الثقافية والاجتماعية والمطالبة بوحدة المنهج طالما أن المنهج هو حيادي ولا يوجد منهج عربي وآخر غربي وأكثر من يجسد هذه الدعوة السيد يسن لأنه يعتقد أن على مستوى التنظير أو الإشكاليات هناك اختلاف بين المجتمعات فمثلا فان ما يواجه المجتمعات المتخلفة هو مشكلة الحداثة بينما المجتمعات الغربية المتقدمة تواجهها مشكلة أخرى وهي مشكلة ما بعد الحداثة، إذن لتجاوز هذا العائق المنهجي

والمعرفي يقترح وحدة المنهج الذي يوحد بين المجتمعات مهما كانت درجة تطورها[2].

ويقترب من هذا الطرح عالم الاجتماع أحمد زايد الذي يذهب هو الآخر إلى أن مشكلتنا ليست نظرية بقدر ما هي إشكالية منهجية وإذا كان يمكن رفض النظرية الغربية من الناحية المعرفية وخاصة في جانبها الاستشراقي أو غيره، فان الاختيارات المنهجية هي التي تمكننا من رؤية مشكلاتنا وهمومنا بعيوننا لا بعيون غيرنا، وهو يطرح كمثال على هذه الاختيارات المنهجية التأويل الذي يحطم العلاقة بين الذات والموضوع ويتنكر لمسلمات الموضوعية الكلاسيكية على الانغماس في الواقع وفي أنفسنا ليتحقق بينهما التلاؤم و الانسجام الذين انعدم في وعينا المشطر مما يجعلنا نرى الأشياء كما يحددها الآخر في الداخل والخارج [3].

ويشترك كثير من علماء الاجتماع العرب الذين يعتقدون أن علم الاجتماع العربي يستطيع أن يستفيد من علم الاجتماع الغربي وهذا لا يعني الخضوع لهذه النظريات الغربية الوافدة وإنما يمكن أن نستفيد من هذا التراث في الإرشاد و التوجيه خاصة من الناحية المنهجية [4].

بالإضافة إلى المنهج يذهب البعض إلى أن النظريات الغربية يمكن أن نستفيد منها على مستوى المفاهيم وذلك بعد تجريدها من ارتباطاتها الايديولوجية وعلى حد تعبير المفكر العربي محمد عابد الجابري يجب تبيئة المفاهيم حتى تتلاءم مع الواقع العربي.

وفي مقابل هذا الطرح يرى عدد من علماء الاجتماع العرب أنه يمكن إقامة علم اجتماع عربي نابع من خصوصية المجتمعات العربية ومستمدا أصوله النظرية من تراثنا السوسيولوجي وهذا ما يجسده علي الوردي الذي يعتقد أن التراث النظري الذي تركه لنا ابن خلدون يعتبر مصدرا هاما وأساسيا لبناء علم اجتماع عربي.

ورغم إننا لا يمكن أن ننكر الإسهام الذي قدمه ابن خلدون خاصة في تحليله لبنية المجتمع العربي وكشف تناقضاته والأسس

التي يقوم عليها ولكن مع هذا يجب أن نحذر عندما نتكلم عن ابن خلدون إذ أنه في كثير من الأحيان نجد بعض الباحثين العرب قرءوا ابن خلدون وأعادوا صياغة أفكاره من خلال رؤية ماركسية بحتة وخير من جسد هذا الاتجاه الباحث الجزائري عبد القادر جغلول عبر كتابه "الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون.

إن الذين يتخذون من التراث أساسا لانطلاقة علم اجتماع عربي رغم اتفاقهم في المبدأ إلا أنهم يختلفون في النظرة إلى هذا التراث وكيفية دراسته إذ نجد كل من الاتجاه الماركسي (عبد الباسط عبد المعطي) والإسلامي (عادل حسين) يرفضون علم الاجتماع الغربي بنظرياته المعرفية ويدعون إلى الانطلاق من واقعنا العربي ولكن كل من خلال رؤية ايديولوجية وقد تكون هذه الرؤية مستوردة كما نجد عند الماركسيين العرب .

إذن يشكل التراث العربي وفق هذه الرؤية الأساس والمصدر المناسب لتأسيس علم اجتماع عربي ،طالما أن النظريات الغربية نشأت في بيئة غير بئتنا العربية بيئة مغايرة ومختلفة جذريا، وبالتالي فان هذه النظريات رغم كفاءتها لا يمكن أن تكون أساسا لدراسة الواقع العربي إذ تبدو عاجزة أمام هذا الواقع وهذا ما دفع بالباحث عادل حسين إلى رفض كل النظريات الغربية التي يتهمها بالعنصرية والتحيز والقصور بل إنها نظريات معادية لنا وهو يدعو صراحة إلى تبني نموذج إسلامي لتأسيس علم اجتماع عربي.[5].

3- أيا كان الأمر فان الدعوة إلى إقامة علم اجتماع عربي ما زالت أمنية تراود الباحثين السوسيولوجيين العرب ولم تتجسد على أرض الواقع رغم المؤتمرات و الملتقيات التي عقدت في كل الأقطار العربية وعن أسباب هذا التأخر نكاد نجد بعض القواسم المشتركة بين الباحثين المفسرة لذلك من بينها الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تمر بها الشعوب العربية والتي تؤثر

سلبا على وضعية علم الاجتماع كممارسة وكمهنة يقول علي الكنز "انه لم يتم حتى الآن بناء الحقل النظري اللازم لولادة العلوم الإنسانية أو العلوم الاجتماعية في البلدان العربية ويرجع سبب ذلك إلى البيئة السلطوية التي تمنح للأنظمة السياسية حق التشريع في كل المجالات، فالسلطة في البلدان العربية ترى في كل خطاب غير منبثق عنها أو غير خاضع لسيادتها خطاب مناوئا لها "[6].

بالإضافة إلى هذه الأسباب يمكن ذكر الأجواء السياسية التي يعيشها العالم العربي من غياب الديمقراطية و حرية التعبير والفكر وعدم وجود مجتمع مدني فعال وسيطرة مظاهر التجزئة والتخلف وانعكاساتها على الممارسة السيولوجية، كل هذه الأسباب تجعل الدعوة إلى إقامة علم اجتماع عربي صعبة التحقيق ولا أظن أنه على المستوى القريب بعلماء الاجتماع العرب قادرين برفع هذا التحدي وخاصة مع التغيرات التي يشهدها العالم وأهمها العولمة التي حسب ما تروج له سوف تقضي على كل خصوصية ثقافية أو فكرية، فإذا لو ينجح الباحثون العرب في تأسيس مدرسة عربية في علم الاجتماع في السابق عندما كانت الظروف مواتية لذلك ، فكيف يمكن لهم في الظروف الراهنة أن ينجحوا في ذلك، وخاصة مع خطاب العولمة المهيمن على الساحة الفكرية حاليا حتى ذهب البعض إلى التكلم عن علم اجتماع العولمة الذي لا يتيح أي إمكانية لفكرة الخصوصية الثقافية و التاريخية.

هوامش البحث:

1. أحمد زايد، النظرية الاجتماعية المعاصرة والواقع العربي، مجلة المستقبل العربي (عدد 189، نوفمبر 1994) ص 106

2. السيد يسن، وحدة المنهج في دراسة المجتمعات المعاصرة، في نيفين عبد المنعم مسعد، (محرر) العالمية والخصوصية في دراسة المنطقة العربية، أبحاث الندوة المصرية الفرنسية الثانية، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، 1991، ص 30.

3. أحمد زايد، مرجع سابق، ص 111.

4. عبد القادر زغل، المدارس العربية والهياكل الاجتماعية في الشرق الأوسط، مجلة المستقبل العربي، (عدد 37 مارس 1982) ص 24.

5. عادل حسين، نحو فكر عربي جديد الناصرية والتنمية والديمقراطية ، القاهرة، دار المستقبل العربي، 1985، ص 11-35.

6. Ali El Kenz, **Enjeux Théorique Des Sciences Sociales Dans Le Tiers-Monde**, Annales De L'Université D'Alger (N° 1,1986-1987) P30